

دور التمثّلات الذهنية في توجيه مقاصد الخطاب عند الإبراهيميّ _ دراسة في نماذج من آثاره _

• صليحة شتيح

الملخص:

يقوم خطاب البشير الإبراهيمي بتجسيد مختلف القيم الفكرية والاجتماعية، التي ترتبط بالبعد الإنساني العالمي، وتعمل على تمرير المقاصد التي يحتويها خطابه، ليتجلى هذا من خلال الدور الذي تمارسه التمثّلات الذهنية في توجيه هذه المقاصد. لتكشف عن الأبعاد المعرفية التي تعكسها اللغة، وتعبّر عن قدرة التمثّلات في توسيع مجال القراءة والتأويل والبحث عن المعاني المسكوت عنها في ثنايا خطابه، وهو ما سنبحث عنه من خلال الوقوف على نماذج من آثاره.

Abstract:

The discourse of Elbash Elibrahim embodies the different intellectual and social values which are related to the humanistic and universal dimensions. They aim at transmitting the intended notions that the discourse embraces. Interestingly, this fact is shown in the role played by the mental representations in directing those intended notions. The latter reveals the epistemic characteristics that the language reflects. Besides, it represents the capacity of the mental representations in broadening the scope of reading, interpreting and looking for the implicit meanings in his discourse. Importantly, those former points are going to be explored by considering his models.

مقدّمة:

تتوزع خطابات البشير الإبراهيميّ على جوانب عدّة تمنحها الشمولية والاستمرار؛ حيث تنتقل من الفكر الجزائريّ بخصوصيّته المحليّة إلى الفكر العربيّ الإسلاميّ فالفكر العالميّ؛ بما حوته من معالم إنسانية يشترك فيها بنو البشر رغم اختلاف أجناسهم وبيئاتهم الفكرية والثقافية، وهو ما كتب لها الخلود والاستمرارية وجعل لها القبول الواسع عند المتلقين.

• صليحة شتيح، أستاذة بجامعة تيزي وزو

وهذا ما يجعل مقاصده الموضوعية والإجمالية ترتبط بالقيم التي تميل إليها النفس البشرية بحيث يحصل الانسجام التام بين ما يريد مُنتجُ الخطاب قوله، وبين ما يبحث عنه القارئ ويتوقع أن يحصل عليه في ثنايا الخطاب لتكون عملية التفاعل متبادلة، فيحصل التأثير المطلوب، وبالتالي الوصول إلى النتيجة المرغوبة من توجيه مقاصد الخطاب وفتح مغاليقه على أركان النفس البشرية كي يلائمها ويناسب خلفياتها المعرفية.

إنَّ القارئ حين يلمّ بخصوصية خطاب إبراهيمي يجده متماهيا في الفكر الإسلامي بإنسانيته وشموليته، فهو يستقي منه خصائصه الكبرى التي تجعله خالدا وصالحا لكل زمان ومكان، مع اصطباغه بلمسته الجزائرية الخاصة التي تظهر تماثله الذهنية حول رؤيته للعالم الخارجي من جهة، وكذا المقصدية التي يريد تبليغها للمتلقين من جهة أخرى. فأى خطاب يكون نتيجة تفاعل بين الواقع الخارجي _ بما يحتويه من تفاعلات ومكونات _ والعالم الداخلي للمؤلف بما يحتويه من بنيات ذهنية ومعارف فكرية وخبرات مركوزة في النظام المعرفي للإنسان، وهذا ما يجعلنا نسأل عن دور التمثلات الذهنية في تشكيل خطابات إبراهيمي؟ وعن المقاصد التي يرتكز عليها خطابه في بعده المحلي والعالمي؟

أولا: دور التمثلات الذهنية في تشكيل الخطاب:

يستمدّ الخطاب خصائصه الأدبية والفنية من المحيط المعرفي الذي ينتج فيه، فنجده يعكس فكر صاحبه ونمط إدراكه العالم الخارجي، ويجسد علاقة هذه الرؤيا بالتمثلات الاجتماعية التي توطئه فيعبر عما يجري في الواقع بواسطة اللغة، لنكون أمام العلاقة الجدلية بين ما ينتجه الذهن وما تنجزه اللغة في المجتمع، ذلك أنّ "الفكر واللغة حقلين مُحفزين لإنتاج المعنى وتسويقه، الفكر لإنتاج المعنى واللغة لتسويقه"¹، وهذا ما شكّل حقل اهتمام واسع في نطاق العلوم المعرفية التي ركّزت على طريقة اكتساب الذهن البشري المعلومة ومعالجتها، ومن ثم إعادة إنتاجها على شكل رموز لغوية أو غير لغوية تحمل معانٍ ومقاصد معينة في سياق خاص يرتبط بما اتفق عليه الحس المشترك حسب ما يذهب إليه بيار بورديو.

إنّ ما يجمع بين العلوم المعرفية (علم النفس المعرفي، اللسانيات، فلسفة العقل، الذكاء الاصطناعي، علم الأعصاب...) هو البحث عن طبيعة القدرات الذهنية التي تشكّل خلفية لأي بناء معرفي بالتركيز على ما يحصل في الدماغ البشري أثناء تمثله المعرفة أو الواقع، وفهم مختلف تماثلاته المعرفية عن طريق تفسير العمليات الاستنتاجية والاستدلالية التي تنطلق من الإدراك وتبني المعرفة، وهذا لأنّ "هناك توجها قويا نحو البحث في الآليات الذهنية التي تتحكم في توليد النص، في عقد الخطاب وفي حله، أي نقل الاهتمام من النصي إلى

1 - محمد سالم سعد الله، مدخل إلى نظرية النقد المعرفي المعاصر، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن، 2013، ص 48، 49.

الذهني¹ بعدما تم الاستغراق في البحث عن معنى الخطاب بين أعطاف اللغة أو في المحيط الاجتماعي الذي يحيل إليه الخطاب مع المقاربات السابقة في مجال تحليل الخطاب. والمقاربة التي يمدنا بها البحث في التمثيلات الذهنية تندرج ضمن إطار تحليل الخطاب في صبغته المعاصرة حين انفتح على العلوم المجاورة للأدب ونهل من نتائجها لفك شفرات النصوص وربطها بالبُنى الذهنية لأصحابها؛ إذ لم يقف مجال تحليل الخطاب على البحوث الأدبية المحضة فقط بل استفاد من مجالات العلوم المجاورة للأدب والمقاربات الأخرى بغية دراسة اللغة كعلم الاجتماع وعلم النفس المعرفي وغيرها، ليكون هذا التركيز على الجانب التمثيلي للواقع باعتباره منطلق تشكّل المعرفة في الذهن البشري، وهو ما يعكس البنيات المعرفية عند المتكلم والتي تتمظهر في العلاقات الداخلية التي يتشكّل منها الخطاب.

نركّز في حديثنا حول التمثيلات الذهنية على البحث عن علاقتها بالمكوّن اللغوي الذي يجعلها ركيزة هامة في بناء النظام اللغوي عند الإنسان كون اللغة تعد الوسيلة الأساسية للتواصل والتعبير عن المدركات والمعارف، وهو ما يحدّد اختيار نسق ذهني لكتاب معين دون آخر على اعتبار أنّ توظيف اللغة "يرتبط بمجالها التمثيلي عند الفرد ليكون إنتاج الأقوال تابعا للمعرفة اللغوية عنده"²، فعملية إنتاج الخطاب تشترك فيها عوامل عدة من أبرزها التمثيلات الذهنية لصاحبه، والتي تشكل رائزا مهما ينبغي البحث في الأطر التي جعلته يتشكل حتى لا نفقد حلقة مهمة في عملية التأثير التي تحدث بين الخطاب وما يحمله من مقصدية، وبين صاحبه الذي يبث فيه هذه المقاصد ويشكله وفق ما يتناسب مع معرفته الخلفية "فالتمثل هنا يقوم بعملية تحويل وإعادة إنتاج الموضوع الاجتماعي في شكل رموز تكون مناسبة لكيفية وطرق الاشتغال الذهني، فلا يتم التفكير في المواضيع الاجتماعية بكونها كذلك فقط، ولكن باعتبارها رموزا تتخذ أشكالا مختلفة تناسب نسق الاشتغال الذهني"³، وهكذا يحصل الانسجام بين ما هو موجود في الكون من معارف، وما يعيد الكاتب إنتاجه في خطابه من خلال الرموز اللغوية، لتكون المعرفة بهذا "ذات طبيعة رمزية، فكل معرفة تحتاج إلى رموز لتمثيلها والتعبير عنها"⁴، ومن هنا تأتي فكرة تمثيل العالم والموضوعات المعرفية والاجتماعية في الذهن

1- محمد خطايي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، لبنان، 1991، ص6.

2 - Hugh Clapin, Phillip Staines, Petre Slezak, Representation in mind : new approaches Mental representation, perspectives on cognitive science, Elsevier, 2004, p 13.

<http://www.oefd.edu.dz>.

3المشكلة الجزئية الثانية: اللغة والفكر

4 - إسماعيل علوي، مراحل تطور اللغة عند الطفل، منشور للفصل الخامس، شعبة علم النفس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، ظهر المهرز، فاس، ص 12.

البشري، لتمتاز شخصية صاحب الخطاب عن غيره من حيث اختلاف بنيته المعرفية وطرق تمثيله للواقع، فيرى فتغنشتاين أنه "فقط حين يدرك الإنسان بأن وسائل تنظيم العقل: التفكير واللغة لا تعوّض الواقع لذاته ولكونها تمثل موديلات لتفسير العالم انطلاقاً من قواعد لعبنا الخاص، حينها فقط سنقترب من الإنسان"¹.

ونحن إذ نتحدّث عن فكرة الانسجام فإننا نرتكز على ما أورده كل من آن روبول وجاك موشر في نظرية المناسبة* كونها تنحو منحاً معرفياً على غرار المقاربات الأخرى في ميدان التداولية المعرفية؛ حيث "ينسجم القول مع مبدأ المناسبة إذا استطاع المتكلم أن يتوقع من خلال فرضياته أن يكون القول مناسباً بدرجة كبيرة بالنسبة إلى السامع أثناء عملية التأويل، بحيث يمكن توقيف مسار التأويل عند الحصول على التأويل المناسب ولا يتواصل إلى ما لا نهاية له. فالتأويل الذي تتبناه نظرية المناسبة هو الذي نتجنب فيه الجهود الكثيرة ونصل فيه إلى القدر الكافي من الآثار (النتائج) بمعالجة (الجهود) دنياً"². وهذا ما يربط الخطاب كنسيج لغوي بقدر مناسب من التأويل حتى لا يُقوّل ما لا يحتمله، وهو ما نركز عليه في تعاملنا مع نصوص إبراهيمي كونها خطابات تُخنة بالحمولات الدلالية وتحتاج إلى مناسبة تُظهر مدى انسجامها، وتلاحم أجزائها، وتكامل مقاصدها الموضوعية والإجمالية.

وهكذا يرتبط البحث عن التمثلات الذهنية التي تؤطر الخطاب بمحاولة التعرف على مدى قدرة اللغة باعتبارها "ملكة ذهنية مخصصة"³ على تجسيد جوهر الحالات الذهنية للإبراهيمي والنسق المتبع في كيفية استخدامه لها كوسيلة للتأثير في المتلقي وتغيير قناعاته، وبخاصة كونه كان مصلحاً ورجل دين بالدرجة الأولى، وهذا ما يعضد فكرة كون تمثلاته كانت موجّهة لتشكيل خطابه وكتاباته المختلفة، لتكون وسيطاً تمثلياً للعالم الداخلي

1 - ريتشارد دافيد برشت، ما اللغة؟ قراءة في فلسفة فتغنشتاين، تر: رشيد بوطيب، مجلة فكر وفن، ع91، ألمانيا، 2009، ص17.

* نظرية المناسبة أو الملاءمة، هي نظرية تنضوي تحت التداولية المعرفية رائدها "سبرير" و"ولسون"، تدرس الخطاب في علاقته بمستعمله من حيث مراعاة سياق التلفظ وخصائص اللغة المستخدمة، وقد انبثقت من "مبدأ التعاون" الحوارية عند الفيلسوف "بول غرايس" في تنظيم مبادئ التخاطب الإنساني الذي يقوم في نظره على أربع مسلمات هي: الكم والكيف والمناسبة والجهة، فقامت نظرية المناسبة على مسلمة المناسبة التي تقضي بأن يكون الخطاب مناسباً أثناء عملية التلفظ.

2 - ينظر: آن روبول وجاك موشر، القاموس الموسوعي للتداولية، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، ص101.

3 - الأزهر الزناد، نظريات لسانيّة عرفنيّة، الدار العربية للعلوم ناشرون بلبنان، دار محمد علي للنشر بتونس، منشورات الاختلاف بالجزائر، ط1، 2010، ص52.

الذي يعكس طريقة إدراكه الحياة الاجتماعية في مختلف تجلياتها، وهذا لأنّ "الرموز مثل الكلمات والتمثلات الذهنية تتحصل على معانها عن طريق علاقتها بالأشياء في العالم الخارجي"¹.

ثانياً: تمثّلات القيم الإنسانيّة في آثار إبراهيمي:

يلاحظ القارئ لخطابات إبراهيمي أنّها واسعة وتميل إلى الانفتاح وتبتعد عن الانغلاق حول الذات أو التوقّع على دلالات تنحصر في زوايا ضيقة من الحياة، بل هي متعددة الأبعاد تُجلي الفكر الإبراهيمي بما يحتويه من تمثّلات معرفية حول المعاني الإنسانية التي كان يدعو إلى تجسيدها، لتقوم خطاباتّه بتمثيل مجموعة من القيم المشتركة التي تمنح أقواله بعداً عالمياً يجمع بين اهتمامات المتلقين رغم اختلاف انتماءاتهم الفكرية والدينية.

إنّ القارئ حين يقف عند خطابات إبراهيمي في آثاره بأجزائها الخمسة يجدها تحتوي على العديد من القيم التي تعبر عن قضايا إنسانية مشتركة كان يسعى لتجسيدها على أرض الواقع من خلال تأكيد وجهة نظره وتبيين أثر وجودها في المجتمع، وقد أثّرنا أن نقتصر في حديثنا على ثلاث قيم رأينا أنها تحمل في طياتها معاني القيم الأخرى، وقد راعينا في هذا كثرة ورودها وتكرارها في الآثار، وكذا شموليتها واتفاق أفراد المجتمع حولها.

1- قيمة العدل:

شكّل المحيط المعرفي الذي عاش فيه إبراهيمي أرضية ارتسمت فيها معالم خطاباتّه، وكانت تحوي المعلومات السياقية التي صاحبت عملية إنتاجها، ذلك أنّه تشبّع في تكوينه بمختلف القيم السامية التي جعلته يستقي تمثّلاته المعرفية من معانيها ودلالاتها. ونجده قد تأثر بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، وكان مقتنعاً بأنّ علاج المجتمع الجزائري من الأمراض التي لحقت به إنما يكون بالانطلاق من تعاليم الدين الإسلامي، جاعلاً ثلاثة أسلحة هي أساس كل إصلاح وهي العقل والعلم والعدل²، وهذا لأنّ العقل السليم يكون ميّالاً إلى اكتساب المعرفة التي تؤهله لتسيير شؤون الحياة على الوجه الأكمل، كونه أساس الحياة السويّة عند الفرد ف "العقل للقلب كالبصر للعين"³، وكلما غُذي عقل الإنسان بما يكتسبه من معلومات وخبرات معرفية ارتقى ليجسّد القيم المحمودة والمطلوبة كتحقيق قيمة العدل في المجتمعات.

1 - محمد الصالح البوعمراني، دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، دار نهى صفاقس، تونس، 2009، ص 16.

2 - ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط 1، لبنان، 1991، ص 14.

3 - طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997، ص 18.

تعبّر خطابات الإبراهيمي في جلّها عن حرصه الدائم على فضح الطرائق التي يتعامل بها الاستعمار مع الشعب الجزائري، وعدم الإنصاف الذي يحدث كل يوم على مرأى من جميع الهيئات الدولية دون ردة فعل رادعة، وهو في هذا يتبنى مبدأ الجهر بالحق في وجه السلطان الظالم دون مراعاة السلطة المطلقة التي كان يمارسها المستعمر مع الجزائريين، يتجلى هذا من خلاله دعوته الدائمة لإقرار قيمة العدل عن طريق إعطاء كل ذي حق حقه ومستحقه من العدل والإنصاف.

ويمثّل الإبراهيمي غياب قيمة العدل في المجتمع الجزائري من خلال ذكر آثاره ونتائجه ومجالاته التي يُعرّف من خلالها، فنجدّه يقول: "ابدأ بما شئت، واختم بما شئت من النظم والقوانين التي تُسّاس بها الجزائر، تجدها كلها دائرة في مبادئها وغاياتها على محور واحد، وهو احتقار المسلم الجزائري وبغضه، وانظر ما شئت في أعمال الحاكمين كبارا وصغارا، وفي ملابساتهم للناس، وفي شمائلهم، تجد الأعمال مفسّرة لذلك، والملابسات حتى في الحديث جارية على ذلك، والشمائل ناطقة بذلك"¹، فهو بهذا يقرّ غياب العدالة التي هي مطلب إنساني وعالمي يحق لأيّ فرد أو أي شعب أن يعيش في ظلّه، لأنّها من الكرامات التي منحها الله لعباده وغصيم إياها بنو البشر (المستعمر في هذا السياق). وعندما يتحدّث الإبراهيمي عن العدل كقيمة إنسانية فإنه يربطها بمختلف مجالات الحياة أين ينبغي تحقيقها؛ فحين نتابع خطاباته حولها نجدّه يتمثّل غيابها في الميادين الآتية:

- ممارسة السياسة؛ حيث يكون للحاكم (فرنسا) السلطة المطلقة في التعامل مع المحكوم (المواطن الجزائري) بما يتماشى مع مصالحه الشخصية، ويخدم أغراضه الاستعمارية دون مراعاة حقوق المواطنين أو خدمة شؤونهم.
- التعليم الذي يكون منتشرًا بين الفئات المرموقة في المجتمع ويكاد يغيب أو يندم عند الفئات البسيطة بسبب التهميش وغياب العدل، إذ يعكس الانتشار الواسع للأمية في تلك الفترة الأثر الذي أحدثه غياب العدل في المجتمع الجزائري.
- القانون حيث استبدل شعار العدالة بشعار يجسّده الظلم والجور، وأصبحت كل القوانين تخدم السياسات الاستعمارية وتعمل على تسهيل شؤون المعتمّرين في الجزائر، في حين يتم تجاوز كل القوانين وتعطيلها حين يتعلق الأمر بالمواطن الجزائري ناهيك عن تطبيق العدالة معه.
- ممارسة شعائر الدين أين تغيب قيمة العدل من حيث عدم احترام الديانات ومحاولات الإكراه المتكررة على اعتناق المسيحية أو التهود، إضافة إلى المحاولات العديدة لطمس معالم الدين الإسلامي وقتل ونفي الدعاة والمصلحين بغرض القضاء على الإسلام وعدم

¹ - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 363.

ترك الخيار للجزائريين، لتمييز هذه السياسة بالإجحاف وعدم الإنصاف فيتجلى بوضوح غياب قيمة العدل في المجتمع الجزائري.

وحين ينحو إبراهيمي في خطابه ليلامس القضايا الإنسانية فإننا نجد دائما يربطها بتعاليم الإسلام وعالميته وشموليته على البشرية قاطبة، حيث يؤكد على قيمة العدل والإحسان، ويشير إلى تركيز الإسلام عليهما حين يقارن بين ما جاء به الإسلام من عدل وما جاءت به الديانات السابقة أو الفاتحون المتعاقبون لبلاد الشمال الإسلامي من ظلم، فيقول: "أما الإسلام فقد جاء بالعدل والإحسان، وجاء وافيا بمطالب الروح، ومطالب الجسم، وجاء لإقرار الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض، لذلك كان سريع المدخل إلى النفوس، لطيف التخلل في الأفكار، قوي التأثير على العقول، ولذلك طال في هذا الشمال أمده، وسيبقى ما دامت الفوارق قائمة بين الإنسان والحيوان"¹. ويعكس هذا المنحى النسق الثقافي الخاص الذي تشتغل عليه التمثلات الذهنية في الفكر إبراهيمي إذ إن "تصوراتنا الخاصة تأتي من النسق الذي نضعها فيه وفقا للثقافة التي تحكم مجتمعنا، فالتنسيق الخاص للمعرفة يؤدي إلى تكوين مفاهيم عن الأشياء والصور الذهنية ويربطها ببعض، فيتكون منها نسق معرفي مغاير للأنساق المعرفية الأخرى"². ومن خلال الطرح الذي يتبناه إبراهيمي نلاحظ النسق المعرفي الذي يوجه خطابه والسياق الاجتماعي والثقافي الذي أسهم في بلورة منظومته الذهنية والمعرفية لتتمظهر على شكل دعوة صريحة لتبني مجموعة من القيم الإنسانية التي تخدم غرضه الإصلاحية وتعبّر عن طريقة تمثله للواقع الاجتماعي.

وهكذا نجد أنّ إبراهيمي كان حريصا على تمثيل قيمة العدل وفق ما يتماشى مع السياق الذي يشكّل الخلفية المعرفية له كمتكلم وللقارئ كمستقبل لخطاباته، لتحصل الملاءمة بين ما يقصده المتكلم وما يفهمه المتلقي أو ما يستطيع أن يصل إليه من خلال القيام بمجموعة الاستدلالات التي توصله إلى المقاصد التي يريد إبراهيمي أن يوصلها حين يتمثل قيمة العدل في شكلها الغيابي في المجتمع الجزائري وهو ما تؤكد نصوصه في الآثار، وبخاصة حين يدعم أقواله بما يحصل في الواقع الجزائري.

2- قيمة الحرية:

يظهر حرص إبراهيمي على قيمة الحرية عن طريق الدعوة الدائمة للتحرر من ريق الاستعمار سواء بالنسبة إلى الجزائر أو غيرها من الدول العربية والإسلامية والشعوب التي تعاني من ويلات، ونجده سباقا إلى المبادرات التي تعمل على لم الشمل وتوحيد الصف بين

¹ - المرجع نفسه، ج 2، ص 467.

² - سمير أحمد معلوف، الصورة الذهنية (دراسة في تصور المعنى)، مجلة جامعة دمشق، مجلد 26، ع2+1، 2010، ص 148.

الشعوب، يتجلى هذا من خلال أقواله التي تظهر في شكل أعمال لغوية مباشرة تعبّر عن المقصد الإجمالي الذي يدعو إليه مُخترًا في قيمة الحرية. وفي هذا دعوة لرفض سياسة الاستتار خلف جدار الصمت الذي بات يتعب النخبة الجزائرية الداعية إلى الإصلاح، إذ نجده يشارك بخطابه في دعم مبادرة "اتحاد أحزاب المغرب الأقصى" ضد الاستعمار، ويثمن كل الجهود والاتفاقيات حول مقاومته ورفض سياساته المتوترة لرفض السيطرة، وعليه فهو يقرّر الحقائق التي تمر بها البلدان المستعمرة آنذاك، ويمثل لرفضها الاستعمار بأثر الاتحاد عليها حين يقول: "... فهذا الاتحاد العتيد الذي هيأ الله أسبابه فكانت كلها عجبا، يعد تخسيرا لحظ الاستعمار، وتوفيرا لحقوق الوطن"¹، وهو بهذا يجعله نموذجا ينبغي أن يحتذى كي تُعمم مبادرة الدعوة إلى الحرية على باقي البلدان المستعمرة وتنتزع الحريات من مغتصبها.

يظهر من خلال أقوال إبراهيمي أنه يتخذ من اللغة وسيلة فعالة في نقل تمثلاته المعرفية إلى المتلقي من خلال بلورة الصورة الذهنية التي يشتغل عليها خطابه الإصلاحية لتكون اللغة واسطة ناقلة للدلالات التي تشحنها معبرة عن دعوته المباشرة إلى تجسيد قيمة الحرية وضرورة العمل على تحقيقها، وهذا لأنّ اللغة "تشكل على وفق اختيار المبدع ورغبته في استخدامها للتعبير عن المكنون الذهني، ولهذا فهي في حالة نمو وتبادل مع الدلالة"²؛ حيث تتوزع لغة إبراهيمي على دلالات ومعان ذهنية واسعة تنفتح على مختلف القيم الإنسانية التي يدعو إلى تحقيقها.

وحيث نلاحظ أقوال إبراهيمي عن الحرية نجدها مُحَمَّلة بمعاني الوطنية والفخر بالانتماء، ومُخبرة عن حالة الشعب الجزائري وما يعيشه من أوضاع استعمارية، وهو في خطابه عن الحرية كقيمة إنسانية ينطلق من الحرية الجزائرية جاعلا منها مركزا يوطر اشتغال دلالة قيمة الحرية في تمثلاته الذهنية، وبما أنّ خطابه عالمي يتجاوز حدود الجزائر فإنه من البديهي أن يدرك القارئ الخيط الرابط بين الحالة الاستعمارية الجزائرية التي تستدعي الحرية، وبين واقع الشعوب في مختلف البلدان التي تعاني من الاستعمار، وتطالب بحقها في العيش بحرية أيضا.

ينطلق إبراهيمي في تمثيله لمركزية الحرية من ثنائية (الموت/ الحياة) التي تتنازع حضور الحرية وغيابها في المجتمع الجزائري، جاعلا منها فيصلاً بين حياة النذل والهوان في غيابها أو موت العزة والكرامة في سبيل تحقيقها، فنجده يوظف أفعالا بصيغة الأمر في أسلوب يميل إلى النصيح والتوجيه بغية اختيار المصير المناسب للجزائريين حين يقول: "إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من

¹ - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 2، ص 400.

² - محمد سالم سعد الله، مدخل إلى نظرية النقد المعرفي المعاصر، ص 318.

الموت"¹. والملاحظ أنّ خطابات إبراهيمي تأتي دائما متوافقة مع حالة المخاطب وسياق التلفظ الذي يتحدث فيه؛ حيث تعمل تمثلاته الذهنية على توجيه خطاباته من أجل "إنشاء الصور والأفكار والمعارف ومختلف التدايعيات والخبرات"² التي كوّنها من المحيط المعرفي الذي يعيش فيه، وهذا ما جعله يحسن اختيار الكلام ويتخير له سياقه المناسب، فيأتي متفاوتا حسب الفئة التي يخاطبها وحسب الموضوع الذي يرمي إليه، وهذا يتوافق مع يشير إليه السكاكي في حديثه عن مقامات الكلام حيث يقول: "لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنة يباين مقام التعزية... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"³، ويستنتج القارئ في هذا السياق أنّ خصوص اللفظ بذكر الاستعمار (فرنسا) لا يقصر الدلالة على الجزائري فقط في البحث عن الحرية بل يتعداها إلى معنى عام ومشترك عند جميع الشعوب، لأنّ الحرية قيمة إنسانية ومطلب عام يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويأبى الانحصار في بوتقة المجتمع الواحد. ومن هنا يكتسب خطاب إبراهيمي بعده العالمي والإنساني؛ كون القضايا التي كان يركز عليها تنطلق من مركزية جزائرية لتنتفتح على الآخر بكل فئاته ليغدو الخطاب بهذا عالميا يتجاوز الحدود الجغرافية والزمانية.

3- قيمة العلم:

يعدّ إبراهيمي من علماء الجزائر الذين حملوا على عاتقهم مهمة الإصلاح في شتى مستوياته، وقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المحضن الذي احتوى مشاريع واستراتيجيات التغيير والمقاومة بمختلف أشكالها، وحرصت برجالها على إحداث التكامل بين مستويات التغيير سواء السياسي أو الفكري أو الديني أو العلمي، وكان إبراهيمي "مقتنعا أنه لا شيء يبرئ الأمة للأعمال الجليلة وبعدها للمشروعات العظيمة كنشر العلم الذي يمحو الجهل، ويطرد الخرافة، ويحرر العقل، وينجح العمل، ويزكي النفس"⁴، فانبرى على التحسين والدعوة إلى الاهتمام بالعلم والتعليم كقيمة عليا ترفع من شأن المجتمع وتعلي من ذكره بين الأمم.

يربط إبراهيمي بين قيمة العلم وما ينبغي توفره كي تؤتي شجرة العلم ثمارها من أخلاق ينبغي توافرها في المتعلم كي يحرز الفضل، فنجده يخاطب الشباب ليستحثّ فهم التمسك بمكارم الأخلاق عن طريق أسلوب الوعظ والإرشاد، فيقول: "فلذات الأكباد، وثمرات

1 - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 5، ص 35.

2 - ندوة تكون المعارف، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 117، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

3 - جامعة محمد الخامس، ط 1، الرباط، 2005، ص 9.

4 - محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1983، ص 256.

4 - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 27.

الأفئدة... إنما أنتم أبناء الغد والغد محجوب، فتدفعوا له بالأخلاق الفاضلة تملكوها أزمته وتتقوا مذمته، وإنما أنتم موكولون إلى العمل والعمل محسوب، فأعيذكُم أن يقول التاريخ عنكم ما قال عنا...¹، وقد لجأ إبراهيمي إلى الحجج التي تعد خلفية معرفية مشتركة بينه وبين المتلقين كي يسهل إقناعهم، وذلك بالانطلاق من المسلمات التي يؤمنون بها ومن الواقع الذي يعيشونه بغية حصول الفهم ووصول الدلالة وبالتالي إدراك المنظومة المعرفية التي يريد توجيههم إليها لأنه حين "لا يشترك الناس الذين يتحاورون في نفس الثقافة ونفس المعرفة ونفس القيم ونفس المسلمات فإنّ الفهم المتبادل يكون صعباً"²، ما ينتج عنه عدم توحيد المنظومة المعرفية والتصورات الذهنية التي يشغلها أفراد المجتمع الواحد، وهو ما عمل إبراهيمي على تلافيه من خلال حسن توظيف اللغة لتوجيه جمهور المتلقين نحو الغاية التي يدعو إليها فلا يملكون إلا التسليم بما ورد في القول ومن ثم يتأثرون به ويمثلون له.

ويظهر جلياً أنّ إبراهيمي كان حريصاً على تخيّر اللفظ المناسب (فلذات الأكباد، ثمرات الأفئدة) الذي يؤثر في المتلقي كي يقنعه بما يقول من خلال ذكر النتائج الإيجابية لما يطلبه منه كي تعم الفائدة على الجميع، وبالتالي فقد كان "حريصاً على أن يحفظ عرى التواصل، حتى يجلب أقصى ما يمكن من عاجل المنفعة لنفسه ولمخاطبه، فيجتهد في التوسّل بما يجلب إقبال المخاطب على سماعه وفهم مراده وتلقيه له بالقبول، طمعا في أن يبادل نفسه الحرص على التواصل وعلى الوصول إلى المنفعة المشتركة"³ ومنفعة ملازمة الأخلاق للعلم تعود على المجتمع ككل بالنتائج الإيجابية.

وإذ يولي إبراهيمي قيمة العلم أهمية كبيرة؛ فإنها تقف خلف هذا الاهتمام جهود حثيثة للبرقي بمستوى التعليم والبحث عليه وبذل الغالي والنفيس لأجل إنجاح المنظومة التعليمية في الجزائر، يتجسّد هذا الإنجاز من خلال الأعمال التي كانت تقوم بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجانب التعليمي. وما يلاحظه المتتبع لخطابات إبراهيمي أنّها تميل إلى الخطابات التعليمية التوجيهية التي تقوم على الأساليب الحجاجية لإقناع المتلقي، فهو يقدّم الأدلة ويعلل كلامه بما يستمدّه من الحقائق الواقعية؛ فنجدّه يستلهم من الواقع الملموس ركائز خطابه، ويستقي من الأحداث الخارجية دعائم بنائه ليصدّقه المستمع ويكون خير دليل على مصداقيته أيضاً، وهو في حديثه عن أهمية العلم وضرورة الاهتمام به يبيّن مقامه عند الأمم فيقول: "إنّ التعليم عند الأمم التي عرفت الحياة معدود في المقومات التي هي رأس مال

1 - المرجع نفسه، ج 1، ص 244.

2 - لايكوف وجونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تعريب: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، 1996، ص 216.

3 - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1998، ص 223.

الوطن¹.

ينطلق إبراهيمي في حديثه عن قيمة العدل أو العلم أو الحرية من تمثله الذهني حول تجربة الجزائر وطبيعة المرحلة التي تمرّ بها، ليندرج خطابه ضمن التمثيلات الاجتماعية العامة التي تؤطر دعوته إلى الإصلاح، وهكذا يمكن القول إنّ تمثّل إبراهيمي لهذه القيم ينبع من المعلومات التي استمدّها من محيطه المعرفي بمدخله الموسوعية المتعددة التي شكّلت بنيته المفهومية حول مجموع القيم السالفة، حيث تكون "البنية المفهومية عند جاكندوف مستوى تمثيلي مركزي في النظام العرفي، أما أولياته فهي عناصر أو وحدات ممثلة في الذهن من قبيل تمثيلات الأشياء المادية والأحداث والخصائص أو الصفات والأزمنة والكميات والمقاصد وما إليها"²، ممّا ساعد على تنمية خلفيته المعرفية كعالم ورجل دين مصلح وأديب عارف بمتطلبات النفس البشرية، وما تسعى إلى تحصيله من قيم تحقق لها العيش الكريم.

ثالثا: تمثيل المقاصد في خطابات إبراهيمي بين المحلي والعالمي:

يقوم الخطاب الأدبي على تمثيل غايات ومقاصد المتكلم، ويحمل في طياته مواقفه وأفكاره التي تنضوي تحت أعطاف اللغة، لأنّها ترتبط بذهن صاحبه من حيث هو منتجها، إذ "ينظر بنفسيست إلى اللغة بوصفها نظاما مجردا أو طاقة مخزونة في ذهن الإنسان وهي لا تتحول إلى كلام حقيقي ولا إلى نص أو خطاب إلّا من خلال عملية التلفظ أو التحدث ذاتها..."³ وعليه يمكن التساؤل عن البنى الذهنية الكبرى التي توجه استعمال اللغة، وتظهر الانسجام الموجود بين ما تحمله التمثيلات الذهنية لمستعمل اللغة، وما تحويه من مقاصد خاضعة لسياق التلفظ الخارجي.

ويذهب طه عبد الرحمن إلى أنّ "حقيقة الكلام لا تقوم في مجرد النطق بألفاظ مرتبة على مقتضى مدلولات محددة لأنّ هذا النطق قد يقع عرضا كما في حال النوم، والترتيب قد يأتي صدفة كما في حال اللعب، والدلالة قد تنتزع عنوة كما في حال فلتة اللسان، وإنّما حقيقته كامنة في كونه ينبني على قصدين اثنين: أحدهما يتعلق بـ "التوجه إلى الغير" والثاني يتصل بـ "إفهام هذا الغير، أمّا القصد الأول فالمنطوق به لا يكون كلاما حقا حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره. أمّا القصد الثاني فلا يكون المنطوق كلاما حقا حتى تحصل من

1 - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 2، ص 237.

2 - الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفانية، ص 68.

3 - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير، ط 1، الجزائر، 2008، ص 21.

الناطق إرادة إفهام الغير"¹. وهذا ما نلاحظه على خطابات إبراهيمي كونها موجهة إلى المتلقي بغرض إفهامه غاية مخصوصة، وفي سياق مخصوص حسب ظروف صياغة الخطاب. وفي تتبعنا لمقاصد خطابات إبراهيمي نقف عند الغايات التي تعبّر عنها انطلاقاً من مختلف التراكيب والصيغ والأساليب التي تحيلنا إلى المعاني المضمرّة المتوارية خلف نسيج اللغة، مركزين في هذا على المسار الذي تتحكم فيه العمليات الذهنية عنده والتي ترتبط مباشرة بالسياق الخارجي الذي فرض هذا النمط من الاستعمال. ونظراً لكون خطاباته متوزعة بين البعد المحلي والبعد العالمي فقد ارتأينا أن نتبع المقاصد وفق هذه الثنائية لتتجلى الخاصية الشمولية لها في أفقها المنفتح على الفكر الإنساني عامة.

1- تمثيل مقاصد الخطاب المحلي:

في حديث إبراهيمي عن حال الجزائر نجده يتمثل دوماً ثنائية (الاستعمار/ المقاومة) في شتى معانها، فخطاباته تنم عن وعي فكري مقاوم يحيل إلى رغبة ملحة في رفض الوضع السائد وضرورة تغييره، ويرتبط في شكله الإجمالي بمقصد الإصلاح الذي ينطلق من رغبة ذاتية ترمز إلى التحرر كخطوة أولى من أجل عيش حياة كريمة في ظل سيادة وطنية شاملة، وهذا لأنّ "الرموز المرتبطة بالعالم الخارجي هي تمثيل داخلي لواقع خارجي"² يعيشه المتكلم، وهو ما يؤكده إبراهيمي عن طريق استحضار ما يُحَاك ضد الجزائريين من أعمال سياسية متعفنة، ومن حيل وخدع تعمل على تمرير المقررات الفرنسية، وذر الرماد على عيون الجزائريين. فنجدّه يدعو إلى المقاومة بنشر الوعي عن طريق تضمين خطاباته المحلية بعض المقاصد المضمرّة التي تنطلق من الواقع الذي يعيشه كل جزائري كي يفهم الغاية من ورائه، ويستوعب الفكرة التي يرمي إليها، فهو حين يقول مثلاً: "إن هذه الأمة الجزائرية فقدت كل شيء، ولكنها لم تفقد دينها الذي علّمها كيف تميّز المحسن من المسيء وعلمها كيف تكافئ الإحسان وإن قل بالإحسان الكثير، وكيف تكافئ الإساءة بالإساءة عدلاً وبالإحسان فضلاً..."³ يوجّه رسالة ضمنية إلى الجزائريين يشرح فيها الوضع المعيش وكيفية تمثله له من خلال الرموز اللغوية التي يستعملها ف "اللغة ليس لها وجود بمعزل عن تمثيلها العقلي"⁴، وهو يؤكد من خلالها أن زمن الغفلة قد ولى، وأنّ الحرمان المادي الذي يعمل الاستعمار عليه لن يجدي ما دام نبض الدين يسري في عروق الجزائريين، لنتلمس هنا مقصداً ضمناً يرمي فيه إبراهيمي إلى ضرورة اعتبار الدين الركيزة الأولى التي تدعو إلى الاقتصاص من المستعمر وضرورة رفع لواء المقاومة.

1 - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 214.

2 - محمد الصالح البوعمراني، دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، ص 16.

3 - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 247.

4 - نعوم تشومسكي، العقل واللغة، تر: بيداء علي العلكاوي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1996، ص 122.

ومقصدية إبراهيمي هنا تأتي مرتكزة على البيئة المعرفية التي يشتغل وفقها فكره الإصلاحية التحرري فهي "لا ترتبط بالنيات فقط بل تتعداها إلى الآراء والرغبات والآمال... وإلى كل أنماط الحالات الذهنية الواعية أو اللاواعية التي تخص العالم الخارج عن الذهن"¹.

ويربط إبراهيمي قضية المقاومة _ في مفهومها الواسع _ بالدين وحب الوطن أيضا وفق النسق المعرفي الذي يؤطر تصوراتها كون "تصوراتنا الخاصة تأتي من النسق الذي نضعها فيه وفقا للثقافة التي تحكم مجتمعنا، فالتنسيق الخاص للمعرفة يؤدي إلى تكوين مفاهيم عن الأشياء والصور الذهنية ويربطها ببعض، فيتكون منها نسيج معرفي مغاير للأنساق المعرفية الأخرى"²، وهو إذ يركّز في مختلف خطاباته على الخصوصية الجزائرية بما حوته من ثوابت تضرب بجذورها في هويتها الإسلامية، نجده قد عمّق من حبه الكبير للجزائر، وتغنى بذلك وجعله ضمن الأساسيات التي يقيم عليها حياته جاعلا من حبه شعارا لوطنيته، حيث كان يقول: "... وبينا لو تبرجت لي المواطن في حللها، وتطامنت لي الجبال بقللها، لتفتنتني عنك لما رأيت لك عديلا، ولا اتخذت بك بديلا..."³، وما يسترعي انتباه القارئ ذلك التنغم الموجود في عباراته، ورفضها بطريقة محكمة، ومناسبتها للدلالة التي تحيل إليها، مما يشد الانتباه ويغري القارئ لمزيد من التمعن في الخطاب، بحيث يحصل التكامل بين اللفظ ومعناه ليصيب في ذهن المتلقي القصد الذي يريده صاحبه، فالمعاني كما يرى العسكري "تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة"⁴، وإبراهيمي من الكتاب الذين يحسنون اختيار الكسوة الملائمة للمقاصد التي يرومون التعبير عنها بغية إقناع المتلقي، ويمكن أن نتلمس في هذا الصدد المقصد الذي يرمي إليه من خلال ما ورد في آخر كلامه (ما رأيت لك عديلا) و(لا اتخذت بك بديلا) حيث تظهر دعوته إلى ضرورة تمسك الجزائريين بوطنهم وعدم الهروب من أرضهم بالرغم من كل الجهود الاستعمارية الرامية إلى إبعادهم.

يفغوص إبراهيمي في عمق المجتمع لهتم بالقضايا التي يعيشها الجزائريون أثناء الاستعمار ويجملها في صور نتائج متعددة: لعلّ أبرزها الأمية التي انتشرت جراء تهمة حقوق الجزائريين وتردي الأوضاع، ما جعلهم لا يولون التعليم أهمية كبيرة في ظل غياب الأمن، إضافة إلى سياسة الاستعمار التي عملت على إبعاد التعليم عن الجزائريين ليسهل عليها تفعيل مخططاتها، فنجدته يمثل لهذه الفكرة باللجوء إلى مقارنة وضع الأمية في الجزائر مع ما وصلت

1 - مصطفى الحداد، اللغة والفكر وفلسفة الذهن، منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية لكلية الآداب، تطوان، المغرب، 1995، ص 108.
 2 - سمير أحمد معلوف، الصورة الذهنية، ص 148.
 3 - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 4، ص 184.
 4 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك، ط 1، مصر 1319هـ، ص 51.

إليه الشعوب الأخرى من تقدم وحضارة حين يقول: "... لذلك نرى من آثارهم ونسمع من أخبارهم في نشر العلم ومحاربة الجهل ما يفوق الوصف، ونرى من أعمالهم ونسمع من أقوالهم في ذم الأمية، ومحاربة الأمية ما نقضي معه بالعجب..."¹، فهو يجعل محاربة الأمية سبيلا للمقاومة على اعتبار أنّ العلم سلاح فعّال لأيّ أمة تريد الحفاظ على كينونتها، وهنا يتجلى المقصد الذي يرمي إليه في خطابه، فلمّ قد يحارب الجزائريون الأمية آنذاك؟ ليسفر الجواب الواضح على المقصدية المضمرة التي يحملها الخطاب في هذا السياق من دعوة إلى تفعيل سبل محو الأمية عن الجزائريين وبالتالي الالتفاف حول كل الوسائل التي من شأنها أن تسهم في دفع الاستعمار ومقاومته.

2- تمثيل مقاصد الخطاب العالمي:

يحمل خطاب إبراهيمي أبعادا إنسانية هامة تجعله في مصاف الخطابات العالمية التي تحوي قواسم مشتركة بين بني البشر فتعبّر عن آمالهم وآلامهم وتجاربهم الواقعية، وإذا كانت هذه صفتها فإنّ تأثيرها في المتلقي يستدعي من المتكلم اختيار الملامح الإنسانية المتفق عليها للتعبير عنها في سياقها المناسب بما يتوافق مع تماثلاته من جهة وتمثلات جمهور المتلقين من جهة أخرى، وهذا يستوجب حضور الكفاءة اللغوية التي يعتبرها تشومسكي أكثر بُنى الذكاء البشري تميزاً²، وهي التي تمنح المتكلم القدرة على تبليغ مرامي كلامه دون إخلال باللفظ والمعنى، وتمنحه القدرة على إيصال مقاصده، وهو ما يتوفر بوضوح في خطابات إبراهيمي من حيث المقدرة اللغوية التي يتمتع بها، ومن حيث الكفاءة التي تسعفه في التعبير عن مقاصده في بعدها العالمي.

ولعلّ أبرز القضايا العالمية التي تناولها خطاب إبراهيمي بعناية فائقة قضية "الأخوة الإنسانية" بين جميع البشر، والتي رأها تلوح في الأفق من خلال جهود دعاة السلام، إذ نجده يستبشر بتحقيق هذه الغاية بل ويدعو إلى تجسيدها، وترسيخ حضورها بين كل الشعوب، وهو يضرب لقضية الأخوة والتكافل أمثلة؛ كتأسيس الهيئات الخيرية لمساعدة المنكوبين، وحملات التعليم، والجمعيات الطبية، والمالية، والرياضية التي تسعى لخدمة البشر وتحقيق متطلباتهم³. وفي هذا السياق يخرج إبراهيمي من بوتقة البعد المحلي الجزائري لينفتح على البعد العالمي في تحقيق مقصد الأخوة التي يتوحد فيها الإنسان مع أخيه الإنسان بغض النظر عن الاختلافات العرقية والدينية والاجتماعية، وهو في هذا يستند إلى منظومة البنى الاجتماعية الكبرى التي تجمع الإنسانية قاطبة في تماثلاته الذهنية لتكون مقاصده خاضعة

1- آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 204.

2- ينظر: نعوم تشومسكي، العقل واللغة، ص 88.

3- ينظر: آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 1، ص 61.

لرؤيته الخاصة للعالم على اعتبار أنّ "مجمل هذا العالم هو فقط موضوع بالنسبة لذات، أي إدراك مُدرِك، وفي كلمة واحدة: تمثّل. فهذا العالم الذي يحيط بالذات إنّما يكون قائماً بوصفه تمثلاً فحسب، فهو قائم بالنسبة للذي يتمثّله"¹، لتكون مقصدية إبراهيمي في هذا الصدد خاضعة لبنيتها التصورية ونظامه المعرفي الذي يؤثّر رؤيته الإصلاحية ودعوته إلى الأخوة كمطلب إنساني عالمي.

وفي حديثه عن مقصد الأخوة الإنسانية يبدو جلياً حرصه على توسيع مفهومها بين جميع المسلمين حين ينتقل من الخصوصية العربية إلى العالمية الإسلامية بالتوجه نحو كل المسلمين في بقاع العالم وتقرير مبدأ الأخوة التي فرضها الإسلام بشرعه القويم بين الجميع على الرغم من اختلاف الأجناس والأشكال، وهو يؤكد على الصلة الوثيقة التي تربط بين أبناء الجزائر وإخوانهم من المسلمين في العالم، يظهر هذا في خطابه الذي ألقاه بفرنسا أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة حين أصرّ على اعتبارهم إخوة للجزائريين قائلاً: "وكم وددنا لو اجتمعت هذه الوفود في دارنا (الجزائر) فترون ما يشرح صدوركم، ويبهج خواطركم من ارتباط الجزائر بالشرق والعروبة والإسلام"²، وهنا تظهر بوضوح مقصدية لم الشمل وتوحيد الصف والرغبة في إحلال جو من التآخي بين المسلمين من مختلف البقاع.

ويشير إبراهيمي - أثناء حديثه عن مفهوم الإنسانية في بعدها العالمي - إلى المحن التي عانت منها شعوب العالم، ويصوّر الإنسانية في تعبير في فريد يشمها فيه بالأم التي تحضن كل أبنائها بلا تفریق، فيقول: "الإنسانية تلك الأم الرؤوم التي لا تحابي واحدا من أبنائها دون آخر، ولا تميّز بين بار وفاجر، ولا تفرق بين مؤمن وكافر، تلك الأم المعذبة بالويلات والمحن..."³، لتتجلى مقصدية في الدعوة إلى تلافي الأسباب التي تجعل الإنسان يقطع رحمه (أخاه الإنسان) ويدخل معه في صراع مأساوي نتيجته الحتمية البعد عن الأصل الإنساني الذي يجمعه بغيره.

وهكذا تتوزع خطابات إبراهيمي على المقاصد الموضوعية التي يظهرها البعد الوطني المحلي والمقاصد الإجمالية التي يعكسها البعد العالمي، وهو ما يكسبها قوة تأثيرية واسعة تعبّر عن مدى تجذّر الفكر الإصلاحي في تمثلات إبراهيمي للواقع وسعيه الدؤوب نحو تجسيد القيم الإنسانية التي تقوم عليها مقاصده.

1 - آرثور شوبنهاور، العالم إرادة وتمثّل، تر: سعيد توفيق، المجلد 1، المشروع القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2006، ص 1.

2 - آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج 2، ص 465.

3 - المرجع نفسه، ج 1، ص 62.

خاتمة:

يتمتع خطاب البشير الإبراهيمي بمميزات فريدة من الناحية اللغوية تجعله نسيجاً متكامل الأبعاد متواشج العلاقات، يكشف عن الدور الذي تقوم به تمثلاته الذهنية في توجيه مقاصده نحو الغايات التي كان يرمي إليها، إذ يفتح خطابه على تمثيل القيم الإنسانية وتجسيد مختلف الأبعاد المعرفية التي تجتمع فيها البشرية حول نسق إنساني مشترك. وهو ما جعل خطاباته تشكّل مجالاً واسعاً يخلق دينامية وفعالية في عملية الاستقبال سواء في تمثيله للبعد المحلي أو العالمي في نطاقه الإنساني العام.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك، ط 1، مصر 1319هـ.
- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج 1، ج 2، ج 3، ج 4، ج 5، دار الغرب الإسلامي، ط 1، لبنان، 1997.
- أرتور شوبنهاور: العالم إرادة وتمثّل، تر: سعيد توفيق، المجلد 1، المشروع القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2006.
- الأزهر الزناد: نظريات لسانية عرفانية، الدار العربية للعلوم ناشرون بلبنان، دار محمد علي للنشر بتونس، منشورات الاختلاف بالجزائر، ط 1، 2010.
- إسماعيل علوي: مراحل تطور اللغة عند الطفل، منشور للفصل الخامس، شعبة علم النفس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، ظهر المهرز، فاس.
- آن روبول وجاك موشلر: القاموس الموسوعي للتداولية، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.
- نعوم تشومسكي: العقل واللغة، تر: ببداء علي العلكاوي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1996.
- ريتشارد دافيد برشت: ما اللغة؟ قراءة في فلسفة فتغنشتاين، تر: رشيد بوطيب، مجلة فكر وفن، ع 91، ألمانيا، 2009.
- سمير أحمد معلوف: الصورة الذهنية (دراسة في تصور المعنى)، مجلة جامعة دمشق، مجلد 26، ع 2+1، 2010.
- طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب، 1998.
- العمل الديني وتجديد العقل: المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء المغرب، 1997.

- لايكوف وجونسون: الاستعارات التي نحيا بها، تعريب: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، 1996.
- محمد الصالح البوعمراني: دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني، دار نهى، ط 1، تونس، 2009.
- محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1983.
- محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، لبنان، 1991.
- محمد سالم سعد الله: مدخل إلى نظرية النقد المعرفي المعاصر، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن، 2013.
- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير، ط 1، الجزائر، 2008.
- مصطفى الحداد: اللغة والفكر وفلسفة الذهن، منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية لكلية الآداب، تطوان، المغرب، 1995.
- ندوة تكون المعارف: سلسلة ندوات ومناظرات رقم 117، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ط 1، الرباط، 2005.

